الاســـتـــشراق العَـــالـــم savant:

من الإنســـية إلى السياســـة *

بقلم: دانيـــال ريـــــغ ترجمة: أ.د.محمد يحياتن (ج .تيزي وزو)

الاستشراق، من حيث معناه الواسع، هو الدراسة العالمة لبلدان الشرق، ولكن لما كان محكوما بالحضور السياسي لفرنسا في الشرق الأدنى والشرق الأوسط، وبعد ذلك بالاستعمار في إفريقيا الشمالية، فقد كرّس نفسه بشكل خاص للبلدان العربية. إن الاستشراق الفرنسي، الذي رفع إلى جرم المعمودية بفضل الفكر الموسوعي والأنوار والرومانسية، إنسيّ النزعة أساسا، ولكنه سرعان ما احتوته جزئيا خدمة الدولة: حينئذ أمسى كذلك مناضلا وإثنوغرافيا.

الاســـــتـــشراق: اللفـــظ

لم تعرف الأكاديمية الفرنسية بلفظ orientalisme إلا في سنة 1838. علما بأن الأعمال التي عنيت بالشرق قد أفضت خلال القرن الثامن عشر إلى بعض النتائج، من بينها صدور ترجمة ألف ليلة وليلة (1704ـ1717) من قبل أنطوان قالان في بداية عصر الأنوار وترجمة القرن من لدن كلود سافري في 1783 أو رسائل حول مصر (1786) التي هي ذات بال. بالفعل، لم ينتظر الناس ظهور الكلمة هذه كي تدرس اللغات الشرقية وجمع المخطوطات وإعمال النظر في مجتمعات الشرق أو استقدام الصور والمنقوشات عقب رحلة دبلوماسية أو تجارية إلى هذه البلدان الموجودة في ما وراء البحار، قلت هذه الرسوم والمنقوشات التي وصفت متأخرة جدا في القرن التاسع عشر بالمتمشرقة orientalisantes أو الاستشراقية. والحال إنه لم يشرع في الحديث عن الاستشراق بفرنسا إلا منذ أن سخّرت الظروف الحقيقية لاكتشاف عالم وعميق للشرق،

التي لم تتحقق إلا في نهاية القرن الثامن عشر. ومن ثم فإن لفظ الاستشراق يستخدم إلى غاية أيامنا هذه للدلالة على الدراسات المخصصة للشرق (لغات، حضارات، مجتمعات...) دون تمييز بين البلدان والقارات

فالشرق كان عبارة عن عالم مليء بالألغاز ، وبعيد وغرائبي، أي عالم مغاير. يبدأ بعد حدود أوربا الوسطى ويمتد إلى غاية ضفاف الصين واليابان بله يشمل جزءا كبيرا من إفريقيا. سنرى، خلال السنوات، امتداد الرقع اللغوية المعنية وتزايد عدد اللغات الشرقية المدرسة والثقافات المبحوثة.

إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر، ظلت دراسة اللغات الشرقية محصورة في مجال المعارف العملية والنفعية. لقد أراد كولبير، بدافع الحاجة إلى التجارة والدبلوماسية، بناء مدرسة لتكوين التراجمة، أطلق عليها بعد بعض النوائب، في صلب معهد لويس لوغران Ecole des jeunes de langues (1721) بقانون جديد. وكان الشبان يدرسون بها اللاتينية واليونانية القديمة وكذلك التركية والعربية (أما الفارسية فلم يشرع في تدريسها إلا في 1763) قبل أن ينهوا دراستهم ببيرا Pera في ضاحية بالقسطنطينية. في الواقع، كان التعليم مركزا على اللغات وليس على حضاراتها. ذلك أن الغاية منه كانت منصبة على التواصل مع سكانها وممثليها وليس معرفة ثقافاتها. ولئن كان الشرق يمتد إلى أبعد من حدوده النفعية والضيقة إلى حدّ ما، فإن حقل استقصاء الاستشراق في فرنسا قد انحصر في بداياته في إفريقيا الشمالية والإمبراطورية العثمانية وممتلكاتها العربية في الشرق الأدنى وبلاد فارس...

أن تكون " تركيا " أو عربيـــا "

كانت التركية والعربية فالفارسية إذن اللغات الشرقية الأولى التي درّست بشكل مؤسساتي ومن خلالها أمكن للفرنسيين إقامة علاقات معها والبلدان الإسلامية. وبالطبع لقد كان لذلك دواع وأسباب تاريخية: إن كانت العبارة faire turc (تشبّه بالأتراك) تعني في القرن السابع عشر اعتناق الإسلام، فإن العالم العربي، في الفترة الاستعمارية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، هو الذي أضحى موضوع الاهتمام المباشر بالنسبة إلى فرنسا. فعلا، لقد تمت حملة بونابرت أولا فغزو الجزائر وأخيرا غزو تونس والمغرب، الأبحاث تتركز سريعا حول هذه البلدان حيث كان الإسلام السني ممثلا أيما تمثيل وحيث كانت العربية ــ لغة الشعوب ــ

بمختلف صورها " الدارجة " أو لغة الثقافة من خلال صورتها " الكلاسيكية " (الفصحى) . إن لفظ " عربي " هو الذي أصبح آنذاك مجمل الإسلام بحيث كان بالإمكان أن نسمع منذ زمن غير بعيد، هذا اللفظ على ألسنة بعض الصحافيين للدلالة على الأتراك بل حتى على الدلالة على الإيرانيين في حين كان شاه إيران يتأهب للاستسلام وكان الإمام الخميني يعتلي سدة الحكم في 1979.

منذ ذلكم الحين، جعل السياق الدولي هذه الاختلافات الجغرافية والسياسية أكثر وضوحا ومكّن الجميع من إدراك تنوع الساكنة واللغات والمعتقدات والرهانات السياسية في هذه المنطقة من العالم.

هيمنة السائد من الأفكار

كان لا بدّ من حصول عدد من اللقاءات كي تتوافر الظروف المواتية لإنشاء تيار علمي حقيقي يعنى بدراسة الشرق.

أولى هذه الظروف أو الشروط الإقبال الجمّ على المشرقية التي أخذت orientalité ــ بعد أن تكونت ببطء في القرن السابع عشر ــ في الارتقاء في القرن الثامن عشر عبر ظهور ترجمة أنطوا قالان لألف ليلة وليلة. فعلا، أخذ الاهتمام بالمشرق يتزايد خلال القرن 18. وكان حقا رائجا منذ بداية القرن، غير أن هذا راح يتقاطع مع أفكار كانت تعتمل في أذهان بعض السياسيين. كانت الإمبراطورية العثمانية تبدي أمارات الضعف ما جعل هؤلاء الساسة يعتزمون التدخل لا في صلبها بل على أطرافها: في أقاليمها العربية. في هذا المضمار، شرع في معاينة الأماكن (مهمة فانتير دي برادي Venture de Paradis في (1777ــ1778). كان هؤلاء الساسة يتوسمون ، في غزوة بدت لهم طبيعية للمتوسط، فرصة سانحة للثأر من إنجلترا التي اضطروا أن يتنازلوا لها بالهند عن ممتلكات اقتنوها منذ حين.

لقد زودت الروح الموسوعية والرومانسية هذه الغربة في الشرق بنفس جديد. ذلك أن الشرق الأدنى لم يكن موضوع فضول الأفراد وحلمهم بل كان يبدو شيئا فشيئا كمهد للإنسانية: ففيه ولدت الديانات وفيه أيضا استمد التاريخ أصله. فأطلال الماضي قد اكتشفت في اليونان ومصر وسوريا وبلاد الرافدين، وشرع في فكّ الكتابات القديمة. وهكذا تبلور في فرنسا المتمدنة للقرن 18 (...) تمثّل وتصور للشرق وخارطة ذهنية للبلدان الواقعة في ما وراء المتوسط..

في خضم هذه الظروف تمّ إعداد نهضة جديدة. وراح كتّاب أمثال شاطوبريان ولامارتين أو نرفال يجوبون الشرق وكأنهم يبحثون عن أصولهم... العديد من الرسامين اكتشفوا نورا آخر وتباينات شديدة وشخوصا ومواقف تذكر بالأزمنة الغابرة. "قلت من هذه الأمصار خرجت هذه الأفكار الدينية التي أثرت أيما تأثير على أخلاقنا العامة والخاصة وقوانيننا ووضعنا الاجتماعي. وفي هذه الأمصار، نشأت جل الآراء التي تحكمنا. ومن ثمّ فإنه من المفيد بمكان أن نتعرف على الأماكن التي نشأت فيها هذه الأفكار والأعراف والسلوكات والروح وطبيعة الأمم التي كرستها "

وصــف الــحــال

إن تدريس اللغات التركية والعربية والفارسية الذي شهد منذ بداية القرن 19 فترة نجاح بيــّن، قد أخذ يتآكل. فمدرسة الفتيان للغات التي كانت تخرّج التراجمة لم تعد تستقبل التلاميذ، أما الأفراد الذين كانوا يختلفون على كوليج فرنسا فسرعان ما بدؤوا يستشعرون الملل من الدروس التي كان يلقيها عليهم تراجمة قدامى كانوا يجمعون بين وظيفة الترجمة والتعليم والسهر على مخطوطات المكتبة الملكية...فلم يكونوا يجدون الوقت الكافي لهذا التدريس كما سارعت الاضطرابات المترتبة على الثورة في تفكيك النظام.

وقد كان ماتيو لانقلس أول من استاء من هذا الوضع. وقدم منذ 1790 للمجلس الوطني مذكرة عنوانها *أهمية اللغات الشرقية من أجل توسيع التجارة وازدهار الآداب* غير أنها لم تستثر انتباه النواب.

بالموازة حرّر أحد أكفإ التراجمة بفرنسا وهو فانتو ردي برادي (1739ــ1799) مذكرة عنوانها: *"ضرورة تشجيع دراسة اللغات الشرقية بفرنسا"* وفيها حلل أسباب نفور الجمهور من هذا النوع من الدراسات والعواقب التي قد يسببها لسياسة فرنسا وتجارتها، واقترح بعض الحلول المعقولة. بعد ثلاثين سنة التي قضاهافي الوظائف القنصلية بالشرق الأوسط وشمال إفريقيا، كان حقا على وعي بالصعوبات التي كانت تنوء على كواهل زملائه في المناصب التي عينوا فيها...فقد كان على التراجمة أن يتولوا مهام القضايا القنصلية والدبلوماسية. ورغم هذا، لم يكونوا يتمتعون بآفاق واعدة بالنسبة إلى مسارهم المهني. وقليلون هم الذين كان في مقدورهم بلوغ وظيفة كاتب ترجمان للملك أو وظيفة أستاذ بكوليج فرنسا...

في الوقت نفسه، نشر فولني (1757ـ1820) *رحلته إلى مصر وسوريا* التي حظيت بنجاح باهر. يقول فيها بأنه لما تعذر عليه إيجاد مكان بفرنسا يتعلم فيه العربية، اضطر إلى الاختلاء في كنيسة مارونية طيلة ثمانية أشهر بلبنان. بعد ذلك بكثير، كان عليه أن يناضل بقوة من اجل إرساء تعليم للغات الشرقية، ثم ــ اقتفاء لآثار لنجلس ــ راح يدعو لإنشاء مؤسسة خاصة تدرس بها هذه اللغات. وهكذا سمح تضافر هذه الجهود، في صلب مجتمع شرع يتشبع بأفكار " الحرية والمساواة والأخوة " والذي كان يبدي الفضول إزاء الثقافات الأخرى، قلت سمح بإنشاء المدرسة الخاصة للغات الشرقية الحية (1795) بدعم من رجالات السياسة والعلماء مثل لاكنال رئيس لجنة التعليم العمومي. وكانت هذه المدرسة الخاصة نموذجا لجميع المؤسسات الأخرى التي أنشئت فيما بعد بأوربا وما زالت تعدالوحيدة بفرنسا المؤسسة الأكبر حيث تدرس اللغات الشرقية.

اللـــقـــاءات

كان لنجلس وفولني وفانتور يعرف بعضهم البعض. وقد سلّم فولني مخطوطه *رحلة إلى مصر وسوريا* لفانتور الأكثر اطلاعا على لغات الشرق وأشيائه ملتمسا منه رأيه وتصحيحه إن اقتضى الأمر واستكماله. كما أن لنجلس اعتمد على شهرة فانتور لدعم حججه لإقناع النواب بإنشاء مؤسسة حقيقية لتدريس اللغات الشرقية.

حقا لقد كان السائد من الأفكار يشجع اللقاءات بين رجال ذوي مسارات مختلفة ولكن فضولا إيديولوجيا واحدا كان يحدوهم بشكل غامض. ففولني الذي كان في بداية سنوات 1790 مقيما بكورسيكا لأسباب غامضة جدا من ضمنها السياسية، قد عيّن مرشدا للنقيب بونابرت... وهكذا أمسى " مستشاره الشرقي" وقام بتنظيم مصالح الترجمة المكتوبة والشفوية.

الاستشـــراق نزعـــة إنســـية

إن الفضول والرغبة في التعرف على الشعوب والثقافات هو إحدى ميزات الاستشراق. فالعلماء كانوا ينطوون على الرغبة البينة في البحث عن أعمال الماضي وطبعها وترجمتها ودراستها بإعمال النظر في لغة الشعوب وحضارتهم وتاريخهم أولا لذاتها ومن أجل نشرها. في المحصلة، يمكن القول بأن الاستشراق عبارة عن شكل آخر للإنسية أكثر رومانسية. إن هذه

النزعة هي ثمرة علماء ذوي تكوين كلاسيكي قائم على معرفة الآداب الإغريقية واللاتينية، وهي موسوعية حيث تشكل الكتب والجرائد جزء من المعيش اليومي. ولما كانت المجتمعات التي يدرسونها لا توفر لهم شيئا من هذا القبيل، فقد عنوا بعصرها الذهبي الذي اكتشفوه من خلال المخطوطات. لأجل ذلك سعوا إذن إلى تعلم اللغات ونصبوا أنفسهم مترجمين أدبيين وهواة جمع النقود واقتصاديين ومؤرخين وحفريين... وبعد ذلك بكثير، أمسوا أنتروبولوجيين. بيد أن أذواقهم وتكوينهم قد حملتهم على التطور في وسطهم المعتاد بين مكتبتهم وقاعات دروسهم أكثر مما حملتهم على ارتياد سبل المغامرة.

بيد أنه كما حصل للنهضة التي كان لها وجهان، وجه مصوب نحو ما كان يعدّ عصرا ذهبيا للثقافة والذي كان يهمّ اللغوي المتفقه والعلامة ووجه الغازي الذي كان ميالا للمغامرة، فإن المستشرق أيضا وبشكل طبيعي قد انخرط في الغزوات الاستعمارية والمساعي اليومية. ولما كان أكثر نضالا، فقد سعى إلى التواصل مع الشعوب سواء أكان ترجمانا أم أستاذا. أحيانا كان يقوم مقام المتصرف الإداري والعسكري. لقد كتب الإنسي بيك دو لاميراندول في القرن 15 يقول " قرأت في كتب العرب بأنه ليس هناك ما هو أجمل من الإنسان في العالم " ليشهد بذلك بأن علماء عصره كانوا على بعض العلم والمعرفة بالحضارة العربية. وقد أعطى بوجه خاص إشارة عن مشروع المثل الإنسي المركز والموجه حول معرفة الإنسان منظورا إليها لا كمقدمة لمعرفة الرب بل كتأكيد لحقوق الإنسان في التفكير. بعد رحلة طويلة عبر القرن 16 وحروب الدين في القرن 17 والملكية المطلقة، تعزز المشروع الإنسي وألفى انسجامه في أواسط القرن 18 في صلب الأنوار والمسعى الموسوعي لديدرو ودالامبارت. إنا نعرف كم أحست الكنيسة والروح الموسوعية بهذا المسعى كعدوان لا يطاق. في الواقع، كان ذلك يشهد على علمنة للفكر سرعان ما تعممت في جميع قطاعات النشاط الفكري.

لقد أحاط المستشرقون الأوائل الذين ولدوا وتكونوا في هذا المناخ العالم الشرقي والعالم العربي الإسلامي بخاصة كظاهرة حضارية لم تكن فيه الظاهرة الدينية سوى موضوع دراسة ما بين موضوعات أخرى، سلّطت عليها " نظرة بعيدة " كما قال ذلك كلود ليفي ستروس فيما بعد. فعلا، لقد تمّ العدول عن تعصب الحروب الصليبية والخوف الناجم عن تقدم وتغلغل العثمانيين في البلقان وأوربا الوسطى : أكدت أوربا تفوقها المادي في مناسبات عديدة واستشعرت الثقة في النفس. ولما أضحى الإسلام لا يشكل خطرا فإنه لم يعد يتبوأ مكانة جمة في أعمال العلماء. إن

هذه النزعة، التي تعززت بالنمو التكنولوجي وميلاد العلوم الإنسانية، تواصلت خلال القرن 19 كله علمانية أكثر فأكثر. كما تواصلت أيضا في القرن 20.

أمـــاكـــن التكوين ونـــشـــر المعـــرفة

أنشئت المدرسة الخاصة للغات الشرقية الحية بمرسوم بتاريخ 30 مارس 1795. وكما رأينا فإن لنجلس هو الذي كان صاحب المبادرة والمشروع، وأول رئيس لهذه المؤسسة. وقد ظل كذلك إلى غاية وفاته في 1824. وهو الذي كان له الفضل في تحديد مكان المدرسة الجديدة. وبما أنه قد عيّن في 1792 محافظا للمخطوطات الشرقية فإن أمكن للدروس أن تنطلق في المكتبة الوطنية في محل أردأ كانت مزيته الوحيدة تكمن في محاذاته بقاعة المخطوطات الشرقية. وقد أفضى هذا التساكن طيلة سبعين سنة إلى الخلط بين الوظيفتين: إدارة المدرسة والمحافظة على مخطوطات المكتبة الوطنية. ولم يقيّض لمدرسة اللغات أن تقيم في فندق خاص إلا في أكتوبر 1873 بشارع ليل. تمّ ترميم محلات كما تمّ بناء محلات أخرى وهكذا ضمت الاستقلالية الجغرافية والإدارية توسعا جديدا لها. وأخذ التلاميذ عليها بكثرة، وكانوا يسمونها 'Langues O.

بعد تحويلها، زودت المكتبة ــ التي كانت عبارة عن مخزن للكتب ذات الاستعمال الآني ــ بقانون جديد وأصبح لها فضاء وميزانية. وهكذا أمكنها التطور.في مرحلة أولى، نشرت أعمالا مجعولة للتدريس ومنتخبات ومصنفات نحوية. بعد ذلك، تخصصت في نشر أعمال علماء من نصوص هامة (تاريخ، أخبار، سير...) مصحوبة بترجمتها.

لقد صاحب تاريخ إنشاء الكراسي بمدرسة اللغات، بطبيعة الحال، تاريخ التوسع الاستعماري أو تاريخ طموحاته في العالم الشرقي. وهكذا، وبشكل مبكر، وإلى جانب كرسي العربية الذي كان يشغله سيلفستر دو ساسي والذي كان منذورا للتخصص في العربية الفصحى وبخاصة العربية الكلاسيكية، أنشئ كرسي للعربية الدارجة في 1821 وفيه شرع في تدريس العربية الشرقية أو العربية الغربية، وكان ذلك متوقفا على الأساتذة المرسمين الذين تداولوا عليه. شيئا فشيئا أدى الاهتمام بالجزائر في السياسة الفرنسية إلى احتلال العربية الجزائرية مكانة متميزة (...)

سلفستر دو ساسي وخدمة الدولة

عند وفاة لنجلس، استخلفه دو ساسي رئيسا لمدرسة اللغات حيث كان يلقي دروسا في العربية. ولكنه كان يدرس كذلك الفارسية بالكوليج حيث عيّن في 1806. وقد فرض هذا الشخص نفسه في هاتين الوظيفتين طيلة أكثر من أربعين سنة تقريبا بوصفه أبرز أساتذة المدرسة الفرنسية في الاستشراق. وهكذا توافد عليه العديد من التلاميذ من أوربا قاطبة.

تلقى دو ساسي تربية دينية موسومة بالجنسانية jansénisme وتعليما صلبا. بعد دراسات لامعة في اللاتينية واليونانية، تعلم الإيطالية والإسبانية والإنجليزية والألمانية ثم اكتشف السريانية والكلدانية والعبرية. في 1774، رغب في تعلم العربية ولكن قيل له بأن الكوليج لا يدرسها لقلة الإقبال عليها. حينئذ وضع في صلة بترجمان قديم : إيتيان لو قران الذي تبين بأنه مرشد ممتاز...

في 1810، أصدر دو ساسي كتابه الموسوم Grammaire arabe (نحو اللغة العربية) لتلاميذ المدرسة الخاصة للغات الشرقية الحية وقد لاحظ في التنبيه الذي وضعه في الطبعة الثانية في 1831، المزيدة والمنقحة قائلا: " *خلال السنوات العشر التي تفصل الطبعتين، شهدت دراسة العربية بفرنسا وألمانيا وفي شمال أوربا كلها تطورا فاق التوقعات. فقد نشرت كتب عديدة بفضلها أمكن التعرف على الأدب العربي القديم والحديث...*"

إن نصيب دو ساسي في الاهتمام المتزايد باللغات الشرقية وبخاصة العربية كان حاسما. لقد اطلع على جميع المخطوطات التي كانت في متناوله وجميع الكتب المنشورة في أوربا في المجالات العديدة التي كانت تعنيه...عند وفاته، كان قد ترك أعمالا ثرية ومتنوعة وتأثير شخصية وسمت الاستشراق وبخاصة من حيث وجهها العربي...

الاستشـــراق الـــمنـــاضل

" *يجب النظر إلى المستشرقين المناضلين ، في صلب مختلف الدفعات، بوصفهم جنودا في حملة* ". هذه الملاحظة الصادرة عن رجل دبلوماسي تشهد على أن السلطة السياسية قد اضطرت إلى الاستجابة السريعة لتجنيد علماء مستشرقين كي يصبحوا وسطاء ضروريين مع الشرق سواء تعلق الأمر بالاستعمار أم لا.

بعض المستشرقين كانوا طموحين ولكن هل كان بالإمكان معرفة مقاصدهم حق المعرفة ؟ هل كانوا يرومون الحصول على جوائز مجعولة لتكريم أعمالهم الفكرية وتفانيهم في خدمة قضية الاستشراق ؟ حب السلطة ؟ إن كلمة " مناضل " لا يجب خلطها بكلمة " عسكري : صحيح أن بعضهم كانوا كذلك ولكن الأمر يتعلق بالأحرى بعسكريين أصبحوا مستشرقين. فكلمة "مناضل " حسب التحديد الذي أورده أوزاب دو صال معناها الذاهب إلى الميدان قصد الاحتكاك بالشعب الذي حذق لغته في الكتب، فيتحدث معه ويتخلى عن يقينياته ويسائل نفسه...فمشرقه معاصر وآني وحاضر، مشرق الشعوب الحية. حينئذ يمسي قابلا لأن يسخر من قبل السلطة والإيديولوجية. من الواضح أن المؤسسات السياسية (الملكية، الإمبراطورية أو الجمهورية) قد سخرت دائما، بشكل مباشر أو غير مباشر، فوائد النجاحات الاستشراقية، سواء الحاصلة في الدواوين أم في الميدان.

إن سلفستر دو ساسي يمثل هذا المستشرقي المناضل. كان في بعض الأحيان يسر في الرسائل الطويلة التي كان يوجهها لى أحد مراسليه الفرنسيين أو الأجانب عن متاعبه الصحية أو عن حياته العامة التي أرهقته كثيرا لقد دعا طاليران الذي كان آنذاك وزير نابليون للشؤون الخارجية هذا الرجل المكلف بمسؤوليات ثقيلة ومتنوعة والذي أصبح ضروريا، كي يترجم الوثائق المحررة بالعربية أو بالفارسية. فهو الذي ترجم على سبيل المثال منشورات الجيش الأكبر وفي 1807 البيان الذي آمل الإمبراطور من خلاله تأليب السكان المسلمين بروسيا ضد القيصر. كما أشرف على ترجمة الإعلان الموجه للجزائريين قبل احتلال الجزائر العاصمة في جويلية 1830. لقد قبل إذن بالقيام بأعمال لم تكن من قبيل الأعمال التي تتعلق مباشرة بمهامه أي مهمة الأستاذ، غير أنها كانت بطلب من مصالح الدولة وكانت أخلاقياتها تقضي بأن يمتثل لذلك.

ومع ذلك وفق في إظهار استقلاليته في مرات عديدة وفي ظروف كانت تنطوي على مخاطر جمة. وهكذا استقال من وظائفه في 1792 و1793 لأنه رفض القبض على لويس السادس عشر وإعدامه...

تنـــاقـــضات الاســـتـــشراق

لقد كانت الجزائر محكّ الاستشراق الفرنسي ففي هذا البلد كان عليه أن يتأقلم مع ظروف جديدة. إن هذا الشاب خريج مدرسة اللغات وجد نفسه بمجرد نزوله يواجه الواقع الصعب للغة المستعملة في المشافهة. فالتعليم الذي كلف بتقديمه لم يكون موجها لعلماء مستقبليين بل لأناس مدعوين للتحادث مع أناس آخرين ومراسلتهم وفهمهم.

أرسل جاك برينيي (1814ـ1869)، وهو من أنجب طلبة دو ساسي، إلى الجزائر في 1839 لتنشيط تدريس العربية بالكوليج، وقد أدرك حينئذ الصعوبة المتمثلة في " وجوده في صلب الأحداث ". بوصفه أستاذا، لم يتردد في القول في مقدمة كتاب له " *لا يمكن قصر دراسة وتعلم العربية ــ كما يرى البعض ــ على معرفة النحو وخصائص الكلمات*". واعترف بأن شتان ما بين النظرية والتطبيق. وهاهنا وضع برينيي إصبعه في المكان الذي كان الاستشراق الفرنسي يشعر فيه بالضيق. فمنذ بروزه، انغلق في تناقض: كان يظن بأنه يخرّج ممارسين للغات الحية وإذا به يخرج علماء ممتازين ولكنهم يشتغلون على اللغة العربية كما لو يشتغلون على لغة ميتة ولم يكونوا يرون من العالم العربي سوى ما كانت تكشفه لهم مخطوطات قديمة موغلة في القدم.

لقد أكد غزو الجزائر جميع الملاحظات التي قدمت قبل إثنين وثلاثين عاما خلال الحملة على مصر، حول ضرورة عدم إغفال تدريس اللغات الدارجة بتطعيمه ببعض المعلومات حول السلوكيات والأعراف المحلية. ورغم توظيف فريق من 441 ترجمان من جهتي المتوسط في إطار التحضير لعمليات احتلال الجزائر، تبين أن جلهم غير قادرين إما على التعبير باللغة المحلية أو كتابة العربية... وهكذا كان على الدوق روفيقو أن يقضي أياما عديدة ليحرر رسالة قليلة الأهمية رغم توفره على 21 ترجمانا...

هذا لا يعني أن هؤلاء العلماء ــ متى نزلوا إلى الميدان ــ لم يتكيفوا مع جميع الأوضاع. هناك التلميذ لبرينيي قضى هو الآخر جزءا من حياته في الجزائر وكانت له مسيرة كبيرة في الاستشراق: يتعلق الأمر بماك قوكين بارون دي سلان (1801ـ1878) وهو إرلندي استهواه الاستشراق وكان تلميذا ممتازا لدو ساسي... ولما كان بالأساس لغويا ومؤرخا، تخصص أساسا في النصوص الكلاسيكية الأساسية للثقافة العربية. ولا شك أن النصوص المخصصة لإيفريقيا

الشمالية التي ترجمها كانت ذات فائدة جمة للسياسة الاستعمارية. ويتعلق الأمر بـــ: مقدمة ابن خلدون وكتاب العبر في تاريخ البربر .

تحوّل المستشرق إلى إثنوغرافي

في الواقع، إن الميل نحو التبحر في العلم الذي كان ميزة "نجباء الديوان " كما كان يسميهم فولني، قد شجع تطور الإقبال على وصف التجمعات البشرية وتقاليدهم وسلوكياتهم: هكذا نشأت الإثنولوجية وهذه الأخيرة التي تغذت من ملاحظات دقيقة حول الواقع، هي ثمرة الاستعداد للتعرف على الآخر بل حتى التعاطف مع الشعوب، إن هذا الفضول قائم على معرفة جيدة بتاريخ وأدب وديانة الشعوب المدروسة. بيد أن احتلال الجزائر هو الذي زود جميع المستشرقين المتوغلين بداخل البلاد بالوسائل التي غذت هذا الفضول، وحينئذ كان لا بد أن ينظر إليها السكان الأصليون بعين الريبة. بعض المناطق أفلتت من الاحتلال لأنها لم تكن ذات بال على الصعيد الفلاحي. ولكن ربما كان ثمة فائدة ما في التصالح مع السكان. وهكذا موّل وزير الحرب في 1844 إصدار جمعية الجغرافية قاموس اللغة البربرية الذي وضعه فانتور دو برادي في نهاية القرن 18 والذي ظل قابعا في الكرتون. بعد ذلك بكثير، موّل نفس الوزير نشر كتاب تاريخ البربر لابن خلدون الذي ترجمه دوسلان.

إذن كان السكان البربريون يستثيرون اهتمام العسكريين في المقام الأول، وكذلك المبشرين الدينين الذين لم يكونوا بعيدا. ففي مدرسة اللغات، عند دخول 1842 المدرسي، رخّص لقنصل قديم السيد دولابورت، بإعطاء دروس في البربرية غير أنه لم يعمر ...لأن إنشاء المنصب لم يصوت عليه في الغرفة بسبب غيرة دنيئة بين النواب. ومن بين الرواد الذين تخصصوا في الدراسات حول منطقة القبائل نذكر أدولف هانوتو الذي كان آنذاك نقيبا في 1858 (أصبح جنرالا بعد ذلك). وقد أعيد طبع أعماله غير ما مرة إلى غاية أيامنا هذه. هناك مختص آخر في اللغة البربرية ألا وهو شارل دو فوكو (1858ـ1916) الذي كان أولا ضابطا قبل أن يصبح رجل دين، وقد وضع مصنفا نحويا وقاموسا مزدوج اللغة: ترقية ــ فرنسية (لهجة الأهقار).

إن هؤلاء المستشرقين، سواء أكانوا متصرفين إداريين مدنيين أم جنودا أم أساتذة، كان يكفيهم النظر لما حولهم وتسجيل ما يرون...لقد أنشئت عدة جمعيات علمية في كل مدينة كبيرة

تصدر منشورات شهرية أو فصلية أو سنوية وفيها تعرض نشاطاتها وتنشر كتبا حول اللهجات المحلية العربية والبربرية وحول التقاليد المتعلقة بالختان والتغذية والخطوبة والزواج والصناعات التقليدية وحول مختلف الزوايا التي كانت مناهضة للاستعمار...

مسألـــة نظـــرة

في الواقع كان الأمر قائما على طبيعة النظرة الملقاة على الموضوع المدروس والألفاظ المسخرة للدلالة عليه. لنأخذ مثالا على ذلك: لما أطلق على السكان الأصليين لفظ indigènes وفق المعنى القاضي بأن المقصود هو " أهل البلد " سرعان ما اكتسى على ألسنة المهاجرين الأوربيين كما في الجرائد إيحاء قدحيا وأصبح الـــ indigène هو ذلك الشخص القاصر القادر فقط على القيام بالأعمال الثانوية التي يسخر من أجلها. في المحصلة، اتسم الخطاب الكولونيالي بشكل ضمني بصلة المهيمن/المهيمن عليه التي قامت منذ بداية التغلغل الفرنسي في الجزائر. وهكذا أثرت السلوكات والأفكار التي كان المعمرون يتقاسمونها على جماعة العلماء...

مع أرنست رينان (1823ـــ1892)، اكتست الإشكالية مظهرا آخر. لقد كان رينان، الذي ولد في عائلة كاثوليكية حريصة على أداء الطقوس الدينية، منذورا منذ الصبا إلى حياة الكنسية. غير أنه خلال دراساته، مرّ بأزمة وشيئا فشيئا أخذ يفقد إيمانه، واكتشف الفلسفة وحينئذ اكتسى فكره منحى معاديا للظلامية: فلم يكف عن محاربة الشطط الديني حيث يوجد. وقد دافع، وهو المثقف اللامع والعالم الأصيل والبحاثة الجاد، عن أطروحة في الفلسفة حول ابن رشد اولرشدية : بحث تاريخي (1851) وفيها طرح مشكلة استقلالية العقل عن الظاهرة الدينية وخلص إلى إخفاق العقلانية العربية، بسبب تعذر التحرر من وجود الله في الإسلام، في نظره. ومازالت ابحاثه حول العالم السامي اليوم تستثير السجالات، ولكنها قد مكنته من تدقيق فكره. والحال إن هذا الأمر هو السمة الوحيدة التي أحتفظ بها فيما يتعلق بنشاط المستشرق رينان. في مراسالاته مع كبار الشخصيات الفكرية لزمانه، يمكن أن نلاحظ أن إشكالية الاختلافات العرقية كانت آنذاك موضة رائجة، تؤطرها الفيلولوجيا والتاريخ والإثنوغرافيا إلخ وقد كتب لقوبينو ليعرب له بأنه يخالفه الرأي فيما يتعلق باعتقاده بوجود عرق خالص. في الواقع، أدى مساره الفكري العقلاني والعلماني إلى أن يطبق لأول مرة على النصوص المسيحية قراءة علمية...

العنوان الأصلي للدراسة:

L’Orientalisme savant : de l’humanisme au politique, in Histoire de l’Islam et des Musulmans en France du moyen âge à nos jours, Daniel Reig, Ed. A.Michel, Paris, 2005